العرب
الأحد 2021/09/05
السنة 44 العدد 12170

تودوروف يكشف «بصمة الإنسان» عبر أسرار المثقفين

كتاب يضع المثقف والنخبة على المحك عبر صور قلمية

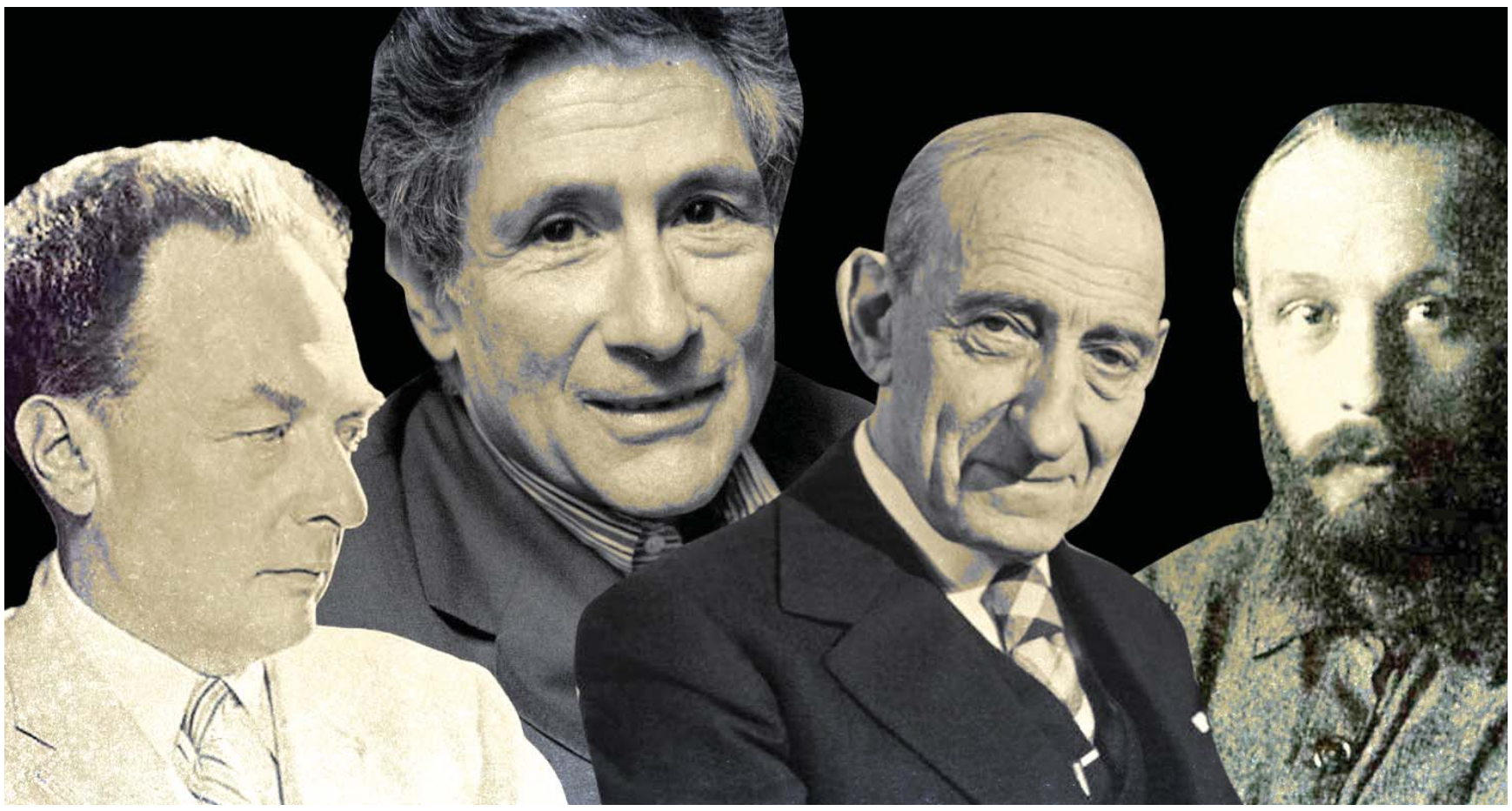

ميخائيل باختين وريمون آرون وإدوارد سعيد ورومان جاكبسون شخصيات كان لها بالغ التأثير

لم تشغل البلغاري الفرنسي تزفيتان تودوروف كتاباته النقدية أو الفكرية عن تنمية صداقات مع مفكري عصره؛ بغية الاستفادة من تجاربهم، سواء بالالتقاء المباشر معهم في مؤتمرات أو اشتغالات علمية، وهو ما كان للكثير منهم بالغ الأثر في حياته الفكرية، أو حتى اللقاء غير المباشر عبر كتاباتهم – على نحو ما حدث مع ريمون أرييون وميخائيل باختين الذي لم يلتقه وجها لوجه، إلا أن ما جمعه به فكره، وطريقته في إلقاء الضوء على العلاقات المتبادلة بين الناس – وحياتهم الحوارية، وحسب اعترافه ساعدته "في وضع شكل هواجسي وأحاسيسي الداخلية الخاصة".

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

في كتاب "بصمة الإنسان"، الصادر مؤخرا بترجمة نجلاء أبوالنصر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة، يقدم تودوروف عددا من الصور أو الوجوه التي يرى أنه لا يجمعه بأصحابها سوى "الاعتراف بالجميل" وإن كان اتخذ من تتبع مسار حياتهم الفكرية، وسيلة لرسم صورة ذاتية لنفسه، على طريقة البورتريه الصيني، كطريقة للكشف عن مظهر الشخصية ورأيه فيها.

الكتاب في أصله مجموعة من المقالات التي كتبها في الأعوام من 1983 حتى 2008، ويراها حصيلة للتأمُّل العميق، والفحص المتأني على مدار خمسة وعشرين عاما، من أجل فك شفرة الإنسان.

ينتمي الكتاب إلى كتابات الصور القلمية، أو السيرة الغيرية، حيث يعمد المؤلف إلى خلخلة الشخصية التي يتحدث عنها، فلا يكتفي بتقديم صورة خارجية عنها، بل يغوص في دواخل الشخصية، كما يتوقف عند تحولاتها من خلال تأملاته في كتاباتها وتحليل أفكاره، فيدخل الذاتي في الموضوعي، ويجعل من الذكريات التي هي الرابط المشترك -في أغلب البورتريهات- هي المحرك للذات للحديث عن الشخصية، ثم يمزج الذكريات أو الشخصي بتأملات في المسيرة الحياتية والعلمية والنضالية لأصحاب الوجوه، بغية استجلاء ما وراء أفكارهم وروافدها الأساسية، وتأثير هذا على الشخصية ذاتها سواء الذاتي أو الفكري.

المعنى الظاهري للكتاب هو عبارة صور قلمية، لكن هذا المعنى يخفي معنى عميقا، يضع المثقف أو النخبة بمفهوم أوسع على المحك، حيث يشتغل الكتاب على المثقف العضوي المنغمس في مشكلات المجتمع ومعضلات الجماهير، كما تجلى في تعريفات جوليان بندا وجرامشي وإدوارد سعيد، وبيان تأثيره أو دوره المنوط به، الذي يتعدى اهتماماته الأكاديمية إلى تبني قضايا جماهيرية تتجاوز إطار التخصص، والاشتباك مع القضايا الراهنة، واختبار مواقف هؤلاء المثقفين -كنماذج دالة- في مثل هذه القضايا، وهل إيمانهم بالليبرالية وتنديدهم بالشمولية والدكتاتوريات جاء منفصما عن آرائهم التي أعلنوها في كتاباتهم، أم دافعوا عنها باستماتة حتى ولو عرضهم هذا الدفاع للوقوع ضحايا الأجهزية الأيديولوجية لهذه الدكتاتوريات.

صور قلمية

عبر هذه الآلية المتقنة يقدم تودوروف بورتريهات أو صور قلمية لخمس شخصيات كان لها بالغ التأثير في حياته الشخصية أو المهنية من ناحية، وفي تبني قضايا إنسانية أعلت من مكانتهم ورفعتهم إلى عنان المفكرين والمؤثرين، والشخصيات هي: المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد، وعالم اللغة والمؤرخ الروسي رومان جاكبسون، والفيلسوف اللغوي والمنظر الأدبي ميخائيل باختين، والفرنسيان ريمون آرون الفيلسوف وعالم الاجتماع، وجيرمين تيون عالمة الإثنوبولوجيا.

تتقاطع هذه الشخصيات الخمس مع شخصية تودوروف في انشغالها بقضايا إنسانية دون الانخراط في مجال التخصص، فكل شخصية من هذه الشخصيات كان لها موقفها الواضح من قضايا عالمية متصلة بالنزاعات والحروب والإرهاب والشمولية، وتأثيراتها على النخبة وعلى الشعوب المستلبة، وهو ما يمنح هذه الشخصيات بُعدا إنسانيًا في الدفاع عن هذه القضايا، بل وصل الأمر بعالمة الإنثربولوجيا (جيرمين تيون) لأن تنخرط في المقاومة، وهو الأمر الذي أوقعها في الاعتقال، فأظهرت شجاعة منقطعة النظير في مقاومة الإنسانية وسوء المعاملة التي تعرضت لها في معسكر "رافنسبروك".

وكانت تجربتها -تحديدا- رغم معاناتها حافزا له على الصبر، فمع تجربتها القاسية التي عاشتها، إلا أنها كان لديها القدرة على عدم الانتقام من الذين أساؤوا إليها، بل سعيها إلى حماية ضحايا جدد بدلا من الاكتفاء باجترار عذاباتها الشخصية.

المنفِي المقاتل

يروي تودوروف أن علاقة صداقة قوية جمعته بإدوارد سعيد (1935 – 2003) استمرت حوالي ثلاثين عاما، منذ أن التقاه في جامعة كولومبيا في نيويورك أثناء إلقاء محاضرة له، وكان سعيد وقتذاك أستاذا يقوم بتدريس الأدب المقارن.

يتخذ من شخصية سعيد وبمعنى أدق سيرته، مرآة ليستجلي هو الآخر سيرته، فالمشتركات التي يعددها بينه وبين سعيد في أحد وجوهها، غاية يُمرِّر من خلالها سيرته الذاتيّة ونضاله ضدّ الشمولية، التقاطعات لا تقف عند التقارب في المرحلة العمرية حيث سعيد يكبر تودوروف بأربعة أعوام، أو حتى الاشتغالات الأدبية، حيث اهتمامها بالنظرية الأدبية، أو حتى اشتراكهما في صفة المهاجر، وإنما تبلغ ذروة المشتركات في أنهما -إدوارد وتودوروف- ينتميان إلى موطنين كانا خاضعين -في الماضي البعيد- للإمبراطورية العثمانية، أي أنهما واقعان تحت فعل الاحتلال. وهو الأمر الذي كان له تأثير كبير في تكوينهما الفكري، وتبنيهما الدفاع عن قضايا استلاب الأوطان، وتفشي النزعة الاستعمارية بكافة أشكالها وتوجهاتها، وتعرية أهدافها.

> الكتاب يتسم بالبساطة والجمع بين التناول الذاتي للشخصية وانغماسها في المعترك العام كما يستعرض مواقف هذه النخبة

ومن هذا المشترك الأخير ينفذ إلى شخصية إدوارد سعيد كمهاجر، فيذكر أن شخصية المهاجر تتميز بالتعددية أكثر من سكان البلاد الأصليين، والسبب عنده؛ لأنهم يعايشون الانقطاع بين ما قبل وما بعد، لهذا يرى أن شخصية سعيد كانت أكثر تعقيدا، وهذا ظاهر في اسمه الذي يحمل تلك الآثار على حدّ وصفه.

ومع هذه المشتركات فثمة اختلافات بينهما تتمثل إحداها في أن العدو الرئيسي لسعيد هو الاستعمار الأوروبي أو الأميركي، أما بالنسبة إلى تودوروف فهو الشمولية والشيوعية أو النازية، ومنها أيضا أن سعيد كان دائما يطرح مسألة السلطة، في حين تودوروف كان يبحث عن سبل التوافق، كما كان سعيد منخرطا في معركة سياسية تهدف -في نهاية الأمر- إلى إنشاء دولة فلسطينية، حيث سعيد كان يعتبر نفسه تجسيدا لهذا التقارب بين الشعبين، فالشعبان محكوم عليهما بالشتات، ومن المفارقة أنه كان يرى أن الظلم الذي وقع على اليهود هو الذي جلب على الفلسطينيين المأساة التي يعانون منها، فهم بتعبيره "ضحايا الضحايا".

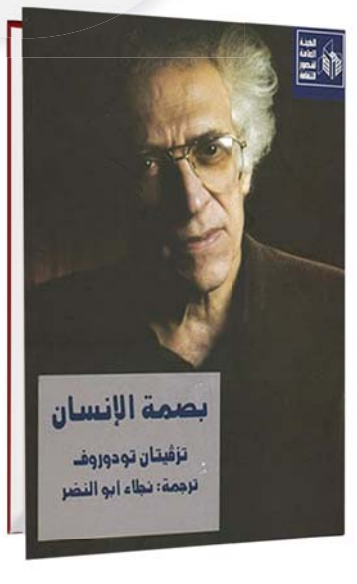

أما تودوروف فقد نحّى السياسة جانبا، وعلى مستوى النظرية فكان سعيد يهتم في تناوله للنصوص الأدبية بمحور الاتصال، من يتحدث وإلى من ولماذا، أما تودوروف فكان يترك أسباب الكلام وتأثيراته ويركز على التأويلات، وقراءته للنصوص لا تأتي كوسيلة للفعل، ولكن كنتاج للمعنى.

ويشير إلى الكثير من الصفات الشخصية لسعيد، ويصفه بأنه لم يكن متعاليًا، بل مثالا للتواضع والبساطة، كما كان يحب المزاح دون أن يعتبره خروجا عن الوقار، ويعتبره -على المستوى الإنساني- من أكثر الناس الذين قابلهم دفئا، ويدلل على هذا بأنه كان يذهب إليه هو وزوجته مريم دون حرج، وأحيانا كان يصطحب أطفاله، ويتذكر أنه في إحدى مرات الزيارات العائلية، كان سعيد يجري خلفهم في شوارع نيويورك كي يعطيهم زجاجة رضاعة طفلهم الصغير، التي كانوا نسوها في بيته بعد سهرة ممتعة.

بالنسبة إلى حياته العلمية فيرى أن سعيد كان وكأنه على عجل من حياته، وبالأحرى كان يعيش بإيقاع سريع أسرع من غالبية الكائنات الحية الأخرى، فقد كانت لديه أنشطة متعددة، كان يبدو وكأنه يعيش حيوات عدة في نفس الوقت، وهو الأمر الذي جعله يعيش حياته على صعيدين منفصلين، الأول الجامعة وهو عالمه المهني وقد أغفل فيه أصله الفلسطيني.

والثاني المدني وقد كرسه للدفاع عن القضية الفلسطينية على الرغم من التحذيرات الأسرية، بأن يبتعد عن السياسة ويركز في الأدب، وهو الأمر الذي كان يرفضه سعيد، مبررا هذا بأنه لا يستطيع العيش دون التزام سياسي، وفي محاولة لتقريب الصعيدين، وجد طريقا مشتركا يتمثّل في دراسة الخطاب الغربي حول الشرق وهو ما أطلق عليه الاستشراق، وقد تبلورت جهوده في سفره العظيم "الاستشراق" 1978، وفيه يرى أن الشرق غير موجود إلا كتلفيق، قصة اختلقها الغربيون، فالخطاب الغربي الذي يتناول الشرق لا يعرفنا بالعالم الشرقي وإنما بكُتّابه من الغربيين.

وكان تأثير المنفى واضحا على سعيد، وقد تجلى هذا في اهتمامه في نصوصه الأخيرة بالحدود، ويعتبر سعيد المنفى "من أكثر الأقدار تعاسة"، ومن ثم فلم يعد يهتم بمفهوم البيت بل يراها فكرة بها مبالغة في التقدير، وبالمثل لم تعد فكرة الوطن تشغله، فالترحال -حسب قوله لصديقه دانيال بارنبويم- "هو ما أفضله"، حتى أنه يتساءل "كيف نستطيع حقيقة أن نحب شيئا بهذا التجريد والغموض مثل الوطن؟".

ويعتبر تودوروف أن تجربة المرض قلبت حياة سعيد رأسا على عقب، فقد صار ميتا مع إيقاف التنفيذ، وهو ما استرعى بعض التغييرات الجذرية في حياته، وكان أولها أن تخلى عن التزاماته السياسية، وركز على العائلة والجانب الشخصي، وهو ما ترجمه في مقالاته، ثم سيرته الذاتية، وكأن سعيد أدرك قيمة الوقت، وأن عليه أن يستغله في الأشياء الأساسية، وضرورة التفكير في الأشياء النهائية، بالإضافة إلى اهتمامه بالتراث الإنساني، وهذا الاهتمام جعل تودوروف يقول إذا أردنا البحث عن الأيديولوجيا الأقرب إلى سعيد، فلن تكون الماركسية ولا النيتشوية، لكنها الإنسانية بشرط أن تكون إنسانية عالمية وغير مختلطة بالوسطية الأوروبية؛ فالإنسانية لديه كانت طريقة من أجل التغلب على حدود أخرى مثل الحدود بين العالم والكلمات، كما كان سعيد ضد أي رطانة أو أي لغة غير مفهومة.

يختم تودوروف بورتريه الإنساني عن سعيد بالقول "إن سعيد واجه الموت بالسخرية منه وبزيادة في النشاط". فقد استطاع سيعد أن يصنع قدره بنفسه، فصار إنسانا عالميًا وإن كان من نوع خاص.

وحدة الفن والعلم

يجمع تودوروف بين جاكبسون وباختين في صورة قلمية واحدة، رغم أنه التقى الأول مباشرة، عندما جاء ليلقي محاضرة عن الشاعر خريستو بوتيف، في حين لم يلتق الثاني إلا عبر كتاباته، ومع هذا فيجعل الفصل بينهما مستحيلا، فكلاهما يعد معاصرا للآخر، كما ارتبط إسماهما بتاريخ القرن العشرين، وقد ترك الاثنان أعمالا هامة في مجال اللغة والأدب، والأهم أن تأثيرهما على تكوينه الشخصي كان قويًا.

استطاع تودوروف أن يجمع بين الاثنين عن طريق الكتابة؛ لأنهما لم يجتمعا قط، رغم محاولات جاكبسون مدّ حبال الود، إلا أن باختين قطعها. هذه القطيعة بين الاثنين دفعت تودوروف للبحث عن أسبابها، بعيدا عن التأويلات الشخصيّة، معتمدا على الكتابات الأولى لكليهما.

من خلال الكتابات الأولى التي نشرها الاثنان، وكانت -للمصادفة- متزامنة، يعثر تودوروف على رابط يجمع بين الاثنين وإن كان باختلاف طفيف في التناول، فجاكبسون في نصه الأول الذي يحلل فيه قصيدتين يؤكد على عنصر الوحدة، ليس فقط الوحدة بين الفن والعلم، وإنما وحدة كل التظاهرات الحداثية بما فيها الفلسفة والسياسة، وعلى المنوال ذاته يمتدح باختين في نصه الوحدة وبصفة خاصة الوحدة بين الفن والحياة.

الاختلاف المستَشف من تناول جاكبسون وباختين للوحدة يكمن كما يقول تودوروف في تعاملهما، فجاكبسون يجعل من عالم الإبداع والفكر كشيء غير ذاتي، في حين باختين يختار منظورا يكون فيه البعد الذاتي حاضرا لا يمكن اختزاله، فتتكون الوحدة عند جاكبسون داخل المعرفة بالعالم المادي أو في عقل الزمن الذي يطبع كل تظاهراته بطابعه، أما باختين فيرى أن الوحدة ممكن أن تحدث (أو لا تحدث) عن طريق فعل إرادي للموضوع، الذي يقرر أن يتحمل في آن واحد فنه وحياته اليومية ويتضامن معهما. على الجملة جاكبسون التزم أن يسلك طريق العلم بينما باختين اختار طريق الأخلاق التي تشكل فيها الإرادة والحرية المسؤولية المقومات الأساسية.

سعى جاكبسون إلى الوصول إلى معنى يكون مرتبطا بذرات اللغة، أو الصورة أكثر من الارتباط بجزئياتها؛ أي الارتباط بالأصوات اللغوية، بالألوان والأشكال التصورية، أكثر من الارتباط بالكلمات أو بالوجوه. فهو ينظر -كما يقول تودوروف- إلى القصيدة أو اللوحة بذاتها كموضوع له قيمة مستقلة، وليس كعنصر لعلاقة مع شيء خارجه، وتحتفظ كل من القصيدة أو اللوحة داخل كل منهما بالذكرى أو ما يوحي بالمعنى.

كان جاكبسون يعتد بالمونولوج في حين باختين أولى اهتماما بالغا للحوار والحوارية، وهو ما كان أحد المآخذ التي أخذها على الشكلانيين، متمثلا في الديالوج الذي يعطي أهمية لتفاعل بين الأفراد، فاللغة ليست شيئا يتم تحليله لكنها تعصر في حدث فريد، وعن مصدر الحوارية براه يكمن في العقيدة المسيحية، فكما يقول باختين "إن بُعد العلاقة بين موضوعين أو شخصين، مع عدم التماثل بين أنا وأنت موجود في التقاليد الغربية عن طريق الفكر المسيحي أكثر بكثير من وجوده عن طريق الفلسفة اليونانية".

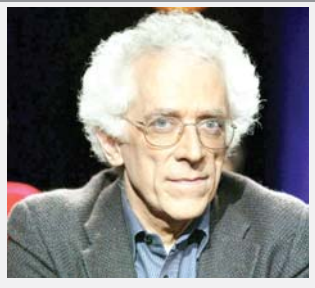

> تزفيتان تودوروف يضع النخبة العربية في مأزق تمثلهم لمفهوم المثقف الحقيقي الذي يمتلك الشَّجاعة، وأن يكون وحيدا ضدّ الجميع

يأخذ تودوروف على باختين التفكير السياسي؛ وإن كان يعذره لأن هذه الموضوعات من المحرمات في الاتحاد السوفيتي.

ومن الاختلافات بين جاكبسون وباختين تعاملهما مع الوقائع التاريخية، فجاكبسون كان ممزقا بين إخلاصه للأفكار الثورية من ناحية، وتعاطفه مع بلده الجديد (تشيكوسلوفاكيا)، من ناحية ثانية. أما باختين فلم ينخرط في الحراك الثوري بل كان يلزم بيته، وحينما اكتملت الثورة لم ينشغل بخدمة النظام الجديد عكس جاكبسون، بل هرب من المجاعة التي أصابت سان بطرسبورج إلى نيفيل ثم إلى فيتسيك، ومع أنه كان مشحونا بالحماس الجماعي والاضطراب الاجتماعي إلا أنه آثر العزلة، بل كما يقول تودوروف "كان متحررا من أي التزام"، على الجملة يصفه تودوروف بأنه لم يكن رجلا ثوريًا، فعل ما هو مفروض عليه في الحياة العامة، وفي طيات كتاباته.